مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (10) العدد (15) 2026
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (15) 2026

# الصّراع الوجوديّ وسرديّة الحرب
# مقاربة تداوليّة في رواية "عينان خضراوان" لحامد الناظر

*** د. ملاذ معن حرفوش**

**(تاريخ الإيداع 4/29 /2026. قُبِل للنشر في 7/8 /2026)**

**□ ملخّص □**

استطاعت رواية "عينان خضراوان" أن تحمل هموم الحرب في السودان، وأن تكوّن منها صورة رمزيّة تمثّل واقع الحروب في البلدان المنكوبة وما يرافقها من أزمات إنسانيّة ومشكلات وجوديّة لدى النّاس، وأن تعكس علاقة الإنسان بالدّين والمجتمع والسّلطة وأبعاد هذه العلاقة، فحملت الرّواية معاني ضمنيّة ومقاصد تداوليّة جعلت منها عملاً أدبيّاً لا يحثّ المتلقّي على نقد الواقع فحسب، بل يقوده إلى تغييره وتبديل بعض معاييره الرّجعيّة، وتصويب أخطائه وإحداث أثر فيه ولاسيما في مآسي الحرب وانعكاساتها.

دُرست الرّواية وفق النّظريّة التّداوليّة، وهي نظريّة لسانيّة تُعدّ مرتكزاً علميّاً متيناً وفاعلاً في فهم النّصوص والخطابات، وإدراك مضمرات التّواصل الحواريّ وفق المقامات السيّاقيّة، والبحث في جوهر التّلفظ ومعانيه الضّمنيّة، وصولاً إلى التّأويل اللّغويّ المقصود من البنيّة الحواريّة وترميزها الكلاميّ المؤسّس لمدلولات ومقاصد تداوليّة متعدّدة.

**الكلمات المفتاحيّة:** التّداوليّة، أفعال الكلام، السّياق، الاستلزام الحواريّ، المعنى الضّمنيّ.

*دكتوراه (الدّراسات اللّغويّة). كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، قسم اللّغة العربيّة، جامعة اللّاذقية، سورية.
malaz19harfosh86@gmail.com

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (10) العدد (15) 2026
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (10) No. (15) 2026

# Existential Conflict and Narrative of War: Pragmatic Approach to the *"Green Eyes"* Novel by Hamed Al-A Nazir

*** Dr. Malaz Maan Harfoush**

**(Received 29/4 /2026. 8 /7/2026)**

**□ ABSTRACT□**

The novel "Green Eyes" managed to embody the onslaught of war in Sudan, creating from it a symbolic image. It reflected the reality of wars in afflicted countries and the accompanying humanitarian crises and existential faced by people. It presented the relationship of man with religion, authority and society. Thus, the novel carried the recipient to critique pragmatics purposes that made it a literary word that not only urges the recipient to critique reality but also leads them to change it and correct the mistakes.

Pragmatics studying serves as an effective and precise scientific approach ror analyzing dialogues, texts, and discourses to uncover implied meanings, identify implicit messages, and deduce pragmatics intentions. This study considers dialogical dimensions and communicative conditions and examines series of dialogue deemed of investigation, identifies the speech acts intended to be performed, and determines the pragmatic implications embedded in the discourse, all in the context surrounding the text.

**Key words:** Pragmatics, Speech Acts, Context, Dialog, Conversational Implicate.

*Doctorate in Linguistic Studies, Arabic Department, Faculty of Arts and Humanities, Latakia University, Syria. Malaz19harfosh86@gmail.com

## 1- المقدّمة:

يرى البحث أنّ الرّواية المعاصرة تجاوزت في بنيتها السّمات الجماليّة والتّرفيهيّة، ولم تعد تكتف بوصف الواقع والأحداث، بل دأبت على نقد الواقع وإحداث تغيير فيه، وذلك بوساطة اللّغة الرّوائيّة التي تمتاز بخصائص فنيّة تجعل منها وجهة رئيسة يقصدها قرّاء اليوم، فعُدّت الرّواية ببنيتها وبخصائصها مجالاً فاعلاً ومنفعلاً لمحتويات التّفكير الإنسانيّ، واندرج نثرها في بنية جماليّة وبلاغيّة ونفعيّة، وقد جاءت رواية "عينان خضراوان" بأسلوب لغويّ وجماليّ جعل منها مادّة للبحث والتّحليل وفق النّظريّة التّداوليّة ومحاورها الرّئيسة، فعمل البحث على تحديد الأفعال الكلاميّة الواردة في النّصّ، ومدى قوّتها إقناعيّاً وتأثيرها في المتلقّي، إضافة إلى كشف المضمرات والمعاني الضّمنيّة الكامنة في الحوار.

## 2- أهداف البحث وأهمّيّته:

يسعى البحث إلى فهم الغايات المرجّوة التي تضمرها اللّغة الرّوائيّة وفق الأيديولوجيا التي تنقلها والكيفيّة التي تُصاغ بها الأفعال اللّغويّة، كما تهدف إلى الكشف عن المعاني الضّمنيّة للكلام، واستقراء المقاصد التّداوليّة، بالاعتماد على المقامات السّياقيّة المختلفة التي تحدّد المقاصد وتوضّح المعاني المتعلّقة بسرديّة الحرب، وما يصاحبها من ملابسات اجتماعيّة وقضايا شائكة.

## 3- منهج البحث وأدواته:

اعتمد البحث على أدوات النّظريّة التّداوليّة الكائنة في فعل القول المنطوق والمكتوب ولازمه الذي يُفضي إليه، وأثره المتوقّع لدى المتلقّي، آخذين في آليّة بناء الحوار بين طرفيه، مشيرين إلى أدوات الإقناع الحجاجيّة. وعمل البحث على تحليل شواهد حواريّة في الرّواية تستدعي البحث والتّقصّي، وذلك وفق أسس النّظريّة التّداوليّة القائمة على إدراك الغايات الكلاميّة، والكشف عن المقاصد التّداوليّة ومضمرات القول الحواريّ؛ إذ عكست الحوارات النّصيّة أيديولوجيا التّفكير لدى شخصيّات العمل الرّوائيّ المتنوّعة والأبعاد النّفسيّة لديهم.

## 4- تمهيد نظريّ:

يُبنى البحث على تحليل النّص الأدبيّ السّرديّ تداوليّاً بما تتضمّنه من مقولات نظريّة انضوت تحت نظريّات عدّة، أبرزها نظريّة الفعل الكلاميّ (Speech Acts Theory)*، وتُعدّ مقالات "جون أوستين" (John Austin) المجموعة في كتابه "How to do Things with Words" المنشور عام 1962 أوّل مؤلَّف نظريّ فعليّ لهذه النّظريّة، وقد وجد التّداوليّون أنّ "المبدأ الأساسيّ الذي تقوم عليه نظريّة الفعل الكلاميّ هو أنّ النّطق بجملة ما هو جزء من فعل ضمن إطار المؤسّسات والأعراف الاجتماعيّة، وإذا وضعناها بصيغة الشّعار، نقول: إنّ القول هو جزء من الفعل، أو إنّ الكلمات هي جزء من الأفعال أو الأعمال"[1]، فالكلمة المنطوقة أو المكتوبة ضمن سياق معيّن تفضي إلى فعل إنجازيّ ناتج عن التّأثر بها والحاجة إلى الامتثال لها.

---

* يتألّف الفعل الكلاميّ من ثلاثة أفعال، هي: الفعل التّعبيريّ (locutionary act)؛ ويُقصد به اللفظ، والفعل الوظيفيّ (illocutionary act)؛ وهو الأثر الذي يُحدثه الفعل ويقصده، والفعل التّأثيريّ (perlocutionary act)؛ وهو ردّة الفعل المتوقّعة على الكلام. ينظر: يول، جورج. *التّداوليّة (PRAGMATICS)*، ترجمة قصي العتابي، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، دار الأمان، الرّباط، 2010، ط1، ص82-83.

[1]- هوانغ، يان. معجم *أوكسفورد للتّداوليّة*(*THE OXFORD DICTIONARY OF PRAGMATICS*)، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2020 حزيران، ط1، ص 618.

وفي نظريّة فعل الكلام "انطلق أوستين من ملاحظة بسيطة مفادها أنّ الكثير من الجمل التي ليست استفهاميّة أو تعجبيّة أو أمريّة لا تصف مع ذلك أيّ شيء، ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصّدق أو الكذب، وبالفعل، لا تُستعمل هذه الجمل لوصف الواقع بل لتغييره"[1]، فالجملة التي تُصنّف تحت مصطلح الجملة الخبريّة قد تغدو في سياق ما طلبيّة ذات غايات نفعيّة، فتحثّ المتلقّي على الأخذ بها عملاً لا قولاً فقط.

واقترح "أوستين" خمسة أقسام للأعمال اللّاقوليّة، هي: الحكميّات، والتّنفيذيّات، والوعديّات، والسّلوكيّات، والعرضيّات[2]، واجتهد "أوستين" في تقصّي الكلام والحوار وصولاً إلى تنظيم الأفعال ضمن المجالات السّابقة، أمّا "جون سيرل" (John Serle) فاقترح وجود أفعال تندرج تحت: الإخباريّات، والطّلبيّات، والوعديّات، والإفصاحات، والتّصريحيّات[3]، ونخلص من هذه التّصنيفات إلى أنّ معاني الأعمال القوليّة أوسع ممّا ذكره كلاهما، وهي خاضعة إلى ظروف الكلام وملابساته السيّاقيّة، ووفقاً لهذه الاجتهادات اللغويّة والتّنظير اللسانيّ تجد أعمالاً قوليّة متنوّعة ضمن النّصوص والخطابات، ويحدّد السّياق معناها الضّمنيّ، وتحقّق جملةٌ من الشّروط المرافقة نجاحَها.

ويخضع فعل الكلام إلى شروط إجرائيّة تحوّله من قول إلى فعل، ومن شروط نجاح الفعل القوليّ أنّ النّطق بكلمات معيّنة يأتي من أناس معيّنين وفي ظروف معيّنة، ويجب أن يكونوا مناسبين للقيام بالإجراء في ذلك الظّرف المعيّن، وأن يُنفَّذ الإجراء بصورة صحيحة وتامّة من أشخاص لديهم دوافع محدّدة ونيّة صادقة[4]، فجوهر التّلفظ يكمن في مراجعة السّياق والإحاطة بجوانبه لتحديد معناه الضّمني المقصود دون سواه.

وانضوت نظريّات لسانيّة متعدّدة تحت النّظريّة التّداوليّة أبرزها نظريّة أفعال الكلام، ونظريّة الحجاج بوصفها تمثّل القوّة التّأثيريّة والإقناعيّة للكلمة، فعُدّ الحجاج مساراً رئيساً من مسارات النّظريّة التّداوليّة، وهو "نظريّة فعليّاتيّة للإقناع العقلانيّ، ترتبط بصورة وثيقة بعمل اللسانيّ الفرنسيّ "أوزوالد ديكرو" ( Oswald Ducrot)، وهي ترفع الحجاج إلى منزلة القوّة التّنظيميّة الأساسيّة وراء كلّ التّواصل اللّغويّ، هي تدرس الإقناع عَبر الحجاج، مستقصية الحجج والمغالطات المنطقيّة واستعمالاتها"[5]، فكلّ نصّ ينضوي على عقائد وأفكار متعدّدة يدأب المتكلّم على ترسيخها والدّفاع عنها عبر أدوات لغويّة إقناعيّة تدعم التّوجّه الذي يتبناه المتكلّم.

ونتج عن التّعمق في الكلام غير المباشر والقصد التّداوليّ في الحوار نظريّة الاستلزام الحواريّ (Conversational Implicative) المرتبطة بمبدأ التّعاون (Cooperative Principle) الذي وضعه "بول غرايس" (Paul Grice)، وصنّفه وفق مبادئ ثانويّة (maxims)، هي: مبدأ الكمّ (maxim of quantity): وذلك أن تجعل مساهمتك إخباريّة بقدر ما يتطلّب الأمر، ومبدأ النّوع (maxim of quality): حيث تكون محادثتك من النّوع الذي يتّسم بالصّحّة، ولا تقل ما تعتقد أنّه كلام كاذب، أو ما يعوزه دليل عندك، ومبدأ

---

[1]– ريبول، آن؛ موشلار، جاك. *التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل*، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، لبنان، تموز 2003، ط1، ص 30.

[2]– يُنظر: بلانشيه، فيليب. *التّداوليّة من أوستين إلى غوفمان*، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، اللاذقيّة، 2007، ط1، ص62.

[3]– يُنظر: السابق، ص66.

[4]– ينظر: الخليفة، هشام عبد الله. *نظريّة الفعل الكلاميّ Speech Act Theory بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغويّة في التّراث العربيّ والإسلاميّ*، الشركة المصريّة العالميّة، مكتبة لبنان ناشرون، 2007، ط1، ص43–44.

[5]– هوانغ، يان. *معجم أوكسفورد للتّداوليّة* (*THE OXFORD DICTIONARY OF PRAGMATICS*)، ص115–116.

العلاقة (maxim of relation): أن تقول أشياء مفيدة للتّفاعل ووثيقة الصّلة بالموضوع، ومبدأ الحال (maxim of manner): أن تكون واضحاً، وتتجنّب الغموض وإبهام التّعبير[1].

ويَفترض غرايس في الحوار "أنّ المتخاطبينَ المساهمينَ في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التّعاون، فالمشاركون يتوقّعون أن يسهم كلّ واحد منهم في المحادثة بكيفيّة عقلانيّة ومتعاونة؛ لتيسير تأويل أقواله، يشرح غرايس هذا المبدأ مقترحاً أربع قواعد متفرّعة منه، من المفترض أن يحترمها المتخاطبون، وأن يستغلوها [...]، بيد أنّ الفائدة الكبرى من قواعد غرايس لا تكمن في وجوب احترام المتخاطبين لها، بل يتمثّل وجه طرافتها في قدرة المتخاطبين على استغلالها"[2]، فالكلام المباشر والالتزام بالقواعد الحواريّة في السّؤال المباشر والإجابة عليه يُفضيان إلى معانٍ مباشرة، أمّا الخروج عن هذه المبادئ، فيعدّ خرقاً حوارياً ذا أبعاد تداوليّة، فتكمن المضمرات وراء اختراق هذه المبادئ بين أطراف الحوار وليس في الالتزام بها، فقد "يرمي المتكلّم أحياناً إلى معنى غير مباشر في لفظه، فيوحي به من خلال فعل يحمل دلالتين، إحداهما مباشرة مهملة، والأخرى غير مباشرة مقصودة، وهذا ما أطلق عليه غرايس الاستلزام الخطابيّ"[3]، فالدّلالة غير المباشرة هي موضوع التّأويل التّداوليّ.

وأضافت "روبن لاكوف" قواعد محادثاتيّة عُرفت بـ "مبدأ التّأدّب"، ويُؤسَّس الحوار تبعاً لملاحظتها على قواعد، هي ألّا تفرض نفسك، وأن تقدّم خيارات، وأن تُظهر الودّ[4]، فاتّباع قواعد التّأدّب بين أطراف الحوار يُفضي إلى معانٍ واضحة تضمن سلاسة الحوار ورشاقته وإدراك مقاصده المباشرة، ولكنّ أطراف الحوار لا يلتزمون دائماً بتلك القواعد بل يتجاوزونها مضمرين مدلولات غير مباشرة يكشفها السّياق.

ولأنّ النّظريّة التّداوليّة نظريّة سياقيّة فهي تقوم على فهم الكلمة وفق سياق ورودها فيه، فعُدّ السّياق **(Context)** ركيزة رئيسة تخدم الكيفيّة التي تجري فيها عمليّة التّواصل التي تنتج منها دلالة بين مستعملي اللّغة، وبوساطته يُزال اللّبس والغموض، والسّياق يدلّ على "تلك العناصر التي تتولّى وضع العلامة ضمن وحدة أكبر، تأخذ ببعد السّياق، في دراسة كلّ وحدة متعلّقة سلفاً بعلامة [...] تطرح مسألة تحديد السّياق الملائم خصوصاً عند دراسة الجملة؛ إذ يمكننا أن نحدّد سياق الجملة بما يجاورها"[5]، فالكلمة وحدها معجميّة بطبيعتها إلى أن تندرج ضمن قرائن لغويّة وسياقيّة معيّنة.

ولا بدّ من توضيح المصطلحات الأساسيّة الواردة في البحث، الأدبيّة والنّقديّة ، فأمّا الصّراع لغة فهو: "الصَّرْعُ: الطَّرحُ بالأرض، وخَصَّه في التهذيب بالإنسان، صارَعَه فصَرَعَه يَصْرَعُه صَرْعاً وصِرْعاً [...] فهو مصروعٌ وصرِيعٌ"[6]، وأمّا اصطلاحاً فهو: "النّزاع بين قوّتين معنويّتين تحاول كلّ منهما أن تحلّ محل الأخرى"[7]، والصّراع في الحروب خاصّة

---

[1]– ينظر: يول، جورج. *التّداوليّة (PRAGMATICS)*، ص68.

[2]– ريبول، آن؛ موشلار، جاك. *التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل*، ص55–56.

[3]– الملا، أروي محمد أحمد. *الأفعال الكلاميّة في الخطاب الرّوائيّ رواية زراريب العبيد أنموذجاً*، كلّية الدّراسات الإسلاميّة والعربيّة للبنات بدمنهور، ع6، ج3، 2021، ص986.

[4]– ينظر: ختام، جواد. *التّداوليّة أصولها واتّجاهاتها*، دار كنوز المعرفة، الشّارقة، 2016، ط1، ص107– 108.

[5]– بريور، ماري نوال غاري. *المصطلحات المفاتيح في اللّسانيّات*، ترجمة: عبد القادر الشّيباني، سيدي بلعباس، الجزائر، 2007، ط1، ص35.

[6]– ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم الأنصاريّ الإفريقيّ المصريّ. *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمّد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ج8، ط1، 1981، مادّة: صرع.

[7]– صليبا، جميل. *المعجم الفلسفيّ بالألفاظ العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة واللاتينيّة*، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص724.

"عمليات استيلاء على الأراضي، وإخلاء السّكان، وقتل الجنود والمدنيين، وتدمير الممتلكات والموارد البشريّة، والتّأثير السّلبي على النّمو العقليّ والسّيكولوجيّ والثّقافيّ للأفراد"[1]. فهو ظاهرة أزلية قائمة بين البشر تحركها دوافع محدّدة وتؤدّي إلى نتائج معيّنة يقرّرها الطّرف الأقوى.

والوجود لغة هو: "وجد مطلوبه والشّيء يجده وجوداً"[2]، واصطلاحاً هو: "الوجود مقابل العدم [...] إنّ الوجود هو كون الشّيء حاصلاً في التّجربة، إمّا حصولاً فعليّاً، فيكون موضوع إدراك حسّيّ أو وجدانيّ، وإمّا حصولاً تصوريّاً، فيكون موضوع استدلال عقليّ"[3]، و"الوجوديّة فلسفة معاصرة تذهب إلى أنّ وجود الإنسان يسبق ماهيّته، تاركاً له حرّيّة الاختيار وتحمّل مسؤوليّته"[4].

فالوجوديّة اتّجاه فلسفيّ يرتبط بكون الشّيء موجوداً وقائماً، وفي الوجود الخارجيّ تصبح الماهيّة متحقّقة، فالإنسان يغدو موجوداً ومخيّراً، معزّزاً وجوده بتحقّقه الفعليّ، وخياراته التي يحمل مسؤوليّة تجاهها.

والسّرد لغة هو: "تَقْدِمَةُ شيء إلى شيء تأتي به متّسقاً بعضه في أثر بعض متتابعاً"[5]، واصطلاحاً: "السّرد خطاب مغلق، حيث يداخل زمن الدّال"[6]، و"السّرديّة علم يُعنى بدراسة السّرد والسّرود وفي جوهرها أدلّة لسانيّة وسيميائيّة تؤدّي وظائف التّبليغ والتّأثير من حيث كونها رسائل دلاليّة وجماليّة وفنيّة متداولة، وهي في الوقت ذاته ظلال لسلوكيّات بشريّة في حاجة إلى تحليل شفراتها بهدف فهم العادات والتّقاليد المحلّيّة ثمّ فهم الثّقافات العالميّة التي تشكّلت من موروثات دينيّة وفلسفيّة واجتماعيّة وغيرها... وبعد ذلك يمكن الوصول إلى فهم أعمق للأشياء بل إلى تفسير أمثل للظّواهر الكونيّة المحيطة بعالم الإنسان. هو ما يُعبّر عنه في الفكر النّقدي المعاصر برؤية العالم"[7].

فإذا كان قوام السّرد الحكي والقصّ، فإنّ السّرديّة ليست مجرد آليّة تتحكّم في القصّ، بل هي رؤية تتوجّه من خلالها الحكاية، وهي حاضنة للعادات والخبرات الإنسانيّة والتّجارب، وتحكمها دلالات عدّة، فتحمل جملة من المفاهيم العميقة، فسرديّة الحرب الواردة في الرّواية منظومة من الخطابات التي تمتلئ بالصّراعات والنّزاعات، فتشكّل خطاباً جماعيّاً متعدّد الوجهات.

## 5- المناقشة التّطبيقيّة:

يُقسم التّطبيق إلى أقسام ثلاثة؛ يعكس كلّ منها مساراً رئيساً تضمّنته الرّواية، فاحتوى القسم الأوّل المسائل المتعلّقة بالقضيّة النّسويّة وهموم المرأة والعقبات التي تعوق حياتها في زمن الحروب، والثّاني ارتبط

---

[1]- فالنستين، بيتر. *مدخل إلى فهم تسوية الصّراعات الحرب والسّلام والنّظام العالمي*، ترجمة سعد فيصل السّعد، ومحمد محمود دبور، المركز العالميّ للدّراسات السياسيّة، عمّان، الأردن، 2006، ط1، ص36.

[2]- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم الأنصاريّ الإفريقيّ المصريّ. لسان العرب، ج3، مادّة: وجد.

[3]- صليبا، جميل. *المعجم الفلسفيّ بالألفاظ العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة واللاتينيّة*، ج2، ص558.

[4]- حجازي، سمير. *معجم مصطلحات الأنثروبولوجيا والفلسفة وعلوم الإنسان والمذّاهب النّقديّة والأدبيّة*، مكتبة شمس المعرفة، دار الطّلائع، ص78.

[5]- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاريّ الإفريقيّ المصريّ. *لسان العرب*، ج3، مادّة: سرد.

[6]- علوش، سعيد. *معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدّار البيضاء، 1985، ط1، ص110.

[7]- بوقرة، نعمان. *المصطلحات الأساسيّة في لسانيّات النّصّ وتحليل الخطاب دراسة معجميّة*، جدارا للكتاب العالمي، عمّان، الأردن، 2009، ص118.

بالحرب ومآسيها وما تنضوي عليه من انتهاكات إنسانيّة، والثّالث اندرجت فيه مسائل تشريعيّة وقضايا إشكالية، وما يواجهه المرء جراء مواقفه الشخصيّة منها.

**5-1- المرأة والسّلطة الأبويّة في المجتمعات التّقليديّة، أزمة متجذّرة ومتجدّدة**

اكتنفت الروايةَ* همومُ المرأة في الحرب، ومعاناتها في الواقع الأليم الذي يزيده قهراً نظرةُ المجتمع، وجاء في الرّواية قول الأب لابنته "عرفة" في حوارهما حول رغبة الابنة في التعلّم:

**"وماذا نستفيد من ذهابك إلى المدرسة؟**

**- أتعلّم.**

**- ما فائدة تعليم النّساء إذا كنّ سيجلسن في البيت ليطهون ويحبلن ويلدن؟ ها أنت تتعلّمين القرآن في خلوة الشّيخ حسب الله، وهذا يكفي!**

**- لا أحبّ الخلوة، فهي لا تعلّم شيئاً غير القرآن، أريد الذّهاب إلى المدرسة، ولا بدّ أن تأخذني إليها"[1].**

تخرج الجملتان الاستفهاميّتان الواردتان في الحوار عن معنى طلب الإفهام، فيغدو الاستفهام فعلاً كلاميّاً في سياق وروده، ويفيد معنى التّقرير، فيصادر رأي المتحاور معه، ويحثّه على الاعتراف بالمجتمع الذي ينكر قيمة تعلّم الفتاة، ويؤكّد ما تعتقد به فئة اجتماعيّة واسعة تزدري تعليمها، وتضعف من منافعه، ويؤكّد فعل الكلام* المتمثّل في صيغة التّوكيديّات في قوله: "**سيجلسن في البيت ليطهون ويحبلن ويلدن**" أنّ مصير النّساء واحد، وأنّهنّ خُلقن وجوديّاً خدمة لتلك الأسباب دون سواها، ويدعم معتقدَه النّسقُ الاجتماعيّ المرتبط بتعزيز أيديولوجيا السّلطة الذّكوريّة وتمكين هيمنتها في الأسرة والمجتمع، فيزيد حكمه المرأة تهميشاً، ويعطّل دورها الحقيقيّ؛ الفكريّ والوجوديّ، ويحطّ من ملكة قدراتها العقليّة، ويثبط عزيمتها.

ويزداد الحوار تأزّماً بين طرفيه عندما تفتر قدرة الفتاة الدّفاعيّة، ويضعف حجاجها اللغويّ، وتتّخذ الإصرار وسيلة أخيرة لتحقيق رغباتها، بيد أنّ ضعف الحجّة الدّفاعيّة الكلاميّة لا يعني خلل الفكرة أو عبثيّتها، بل يتعلّق السّبب بوهن معرفيّ يدلّل المقام عليه، فهي غير متمكّنة من إثبات صحّة ما تؤول إليه توجّهاتها الباطنيّة، ولا تملك الحججَ الإقناعيّة التي تدعم مشيئتها لإضعاف حجّة المتكلّم الذي يشفع له مقامه أن يفرض رأيه قسراً، وتدعمه ثلاثيّة اجتماعيّة قوامها أنّه الأب والذّكر والأكبر سنّاً، ويزداد الأمر سوءاً بهيمنة سلطة الأب (الذّكر) في الأسرة؛ إذ "توفّر الأبويّة العائليّة الخلفيّة الملائمة لظهور هيمنة مزدوجة، سلطة الأب على عائلته، وسيادة الذّكر على الأنثى. ومن حيث بنيتها فإنّ العائلة الحديثة توفّر الخلفيّة الضّروريّة ولكن غير الكافية لتحرير المرأة. إنّ الشّرط الأساسيّ لتحرير المرأة هو انفتاحها

* تدور أحداث الرّواية في السّودان، حيث يحتدم الصّراع بين الحكومة السّودانيّة والمعارضة، وفي سير الأحداث تقع "عرفة" أسيرة، وتنتقل قسراً من معسكر إلى آخر عبر سنوات عدّة، وتتعرّض لصنوف من الإهانة والذل والاغتصاب، وبعد أن استطاعت الفرار تجد نفسها غريبة عند امرأة ترأف بحالها، وتدور جملة من الأحداث وتغيّر مجرى حياتها، لتجد نفسها في إحدى كنائس المدينة، وتلتقي بأستاذ ويقعان في حالة حبّ يكلّلها الزّواج، لكنّ زواجهما يُواجه بانتقادات اجتماعيّة نتيجة اختلاف دينهما، فتُتهم بالرّدة، وتخضع للمحاكمة.

[1]- النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، لبنان، بيروت، 2020، ط1، ص31.

* فعل الكلام هو فعل الخطاب، وهو أحد المفاهيم الأساسيّة في اللسانيّات التّداوليّة، ويعود المصطلح إلى جون أوستين وسيرل، وهو الوحدة اللغويّة التي تحقّق فعلاً بعينه غايته تحقيق غاية المتخاطبين. ينظر: مانغونو، دومينيك. *المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب*، ترجمة: محمد يحياتن، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ط1، ص7.

على التّعليم وانصرافها إلى العمل، وبالتالي تحقيقها استقلالها الاقتصاديّ"[1]، فتجتهد المرأة لتمكين عقلها بدءاً بالمنهجيّة الأصوليّة القائمة على كسر حاجز الجهل والتّمسك بالمعارف واكتساب العلوم، وكلّ ما له شأن يرتقي بها، ويجعل منها نداً للذّكر.

ويعدّ التّعليم أحد أبرز أسباب الحصول على عمل جادّ ومتقن لدى الإنسان، وهو مصدر حمايته لنفسه، واستقلاله واعتماده على ذاته، يدفع ذلك المرأة إلى التّحصيل العلميّ والاكتساب المعرفيّ ضماناً للسّلطة الذّاتيّة وقوّة اتّخاذ القرار، ولا مناص من أن تكون "العادات والتّقاليد والعرف لعبت الدّور الأساسيّ في تشكيل الوضع الرّاهن للمرأة [...] والاتّجاهات التّقدميّة للمجتمع البشريّ لا تؤيّد هذا النّظام القائم على اللامساواة في الحقوق بين الرّجل والمرأة "[2]، فرسّخت بعض المجتمعات تفوّق الذّكر متشبّثة بتقاليد السّلف، والتّمسك بالعادات له وجهان، أحدهما مشرق والآخر مظلم، ويلغي الجانب الأخير آمالاً جليّة في ازدهار مكانة المرأة ومنحها الثّقة اللازمة التي تبرز إمكانيّاتها بعيداً عن الإملاءات الدّاعية باستمرار إلى إقصائها عن الدّور الاجتماعيّ والمهنيّ، أو الثّقافيّ والفنّيّ، وتكريسها لمهمّات منزليّة وأخرى تربويّة وأسريّة ضيّقة ومحدودة تعطّل مقدرتها الحقيقيّة، وتجعل منها نسخة مكرّرة سهلة التّقليد.

ويُبرز النّصّ الرّوائيّ سوء نية المجتمع التّقليديّ المتأطّر بنمط فكريّ مسبق يعوق عمل المرأة، ولاسيما غير المتعلّمة، ويصير في موضع ما طرفاً محارباً لها، تقول "رحمة" لـ "عرفة" متحدّثة عن ابنها الذي قاطعها ورفض التّواصل معها: "**يظنّ أنّني عاهرة. كلّ من تبيع الشّاي والطعام عاهرة في أذهان الكثيرين حتّى أبنائنا، وهذه مأساتنا!**"[3]. يُضمر كلام المرأة السّابق آهات طبقة النّساء العاملات في ظروف الحرب القاهرة، وما يحيط بهنّ من مضايقات تسبّبها طبيعة العمل المفروضة عليهنّ بحكم الظّروف الحياتيّة، وتعدّ الجمل السّابقة جملاً خبريّة لا تصف الواقع فحسب، بل تمثّل فعلاً كلاميّاً على صعيد التّوكيديّات يعكس أيديولوجيا المجتمع تجاه عمل المرأة غير المبارك، فهو عمل لا يُشفع له بالعفّة، فتجعل تلك الأفكار المسبقة الهدّامة المرأة عرضة للإساءة، وتخلط بين مختلف النّساء، وتسمهنّ بسمات شائنة، وتحرمهنّ من حقّ العمل بكرامة.

ويزيد التّهكم الذّكوريّ من صعوبة العمل، وتُضاعف النّظرة الاجتماعيّة من تبعات الاستمرار فيه، علماً أنّه قد يكون مصدر الرّزق المتاح لها، وهو في شتّى مجالاته "ضرورة إنسانيّة من خلاله يحقّق الإنسان الشّعور بقيمة الذّات، الأمر الذي منح الإنسان الشّعور بالرّضا، وقد بيّنت الدّراسات والبحوث المختلفة في هذا المجال أنّ أهمّ الدّوافع هو دافع التّحصيل من التّعليم والاستمتاع بالقيام بالعمل مع الرّغبة في تأكيد الذّات يسمح لها أن تفهم وتعي دورها، وتقدّر إمكانيّاتها وموقعها من الحياة الاجتماعيّة"[4]، فالمرأة في سعي إراديّ أو عرضيّ لإثبات موقعها الوجوديّ، لكنّ بعض الأعمال التي تمتهنها في نسق اجتماعيّ معيّن تعدّ أمراً معيباً أو نقيصة تزدري بمكانتها، ويزداد تعقيد النّظرة المسبقة إذا ما شاب العمل شبهة شائنة، أو ارتبط بمكان مشبوه السّمعة، أو تعلّق في بيئة خالطها الرّجال دون النّساء، فتفقد بيئة العمل تلك الشّرعيّة الاجتماعيّة.

---

[1]– شرابي، هشام. *النّظام الأبويّ وإشكاليّة تخلّف المجتمع العربيّ*، نقله إلى العربيّة محمّد شريتح، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1993، ط2، ص45.

[2]– مل، جون سيتورات. *استعباد النّساء*، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، مصر، 1998، ط1، ص55.

[3]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص51.

[4]– صونيا، عاشوري. *سيكولوجيّة العمل لدى المرأة*، مجلة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع، جامعة جيجل، الجزائر، رقم العدد التّسلسلي 3، مجلد2، عدد2، جوان 2019، ص 65.

وتفرض الظّروف الأسريّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة بصورة عامّة، والحرب وانعكاساتها بصورة خاصّة على الإنسان نمطاً من المهن قسريّاً، وتقوده إلى مزالق هذه المهنة أو تلك، وقد دلّ السّياق الاجتماعيّ للنّصّ على المشاقّ التي تواجه جملة من المهن المحليّة، مثل مهنة بيع المشروبات في الشّارع للسّائقين والمارّة بعد النّزوح القسريّ، وغياب المعيل، وسوء الوضع الماديّ، وشحّ فرص العمل، فتعاني النّساء من واقعهنّ المتردّيّ الذي يزيده سوءاً المجتمعُ وتقاليده الصّارمة.

وقد تغدو بعض المهن أدنى من سواها لكلا الجنسين، لكنّ الوضع أشدّ وطأة على المرأة؛ إذ "تحتلّ المرأة في المجتمعات التّقليديّة الموقع الأدنى لكونها تعيش وضعاً مركّباً من الاستعباد والتّهميش والدّونيّة يختلف بنوعه ودرجته عن وضع المرأة الغربيّة، حيث بلورت النّسويّة مفاهيمها حول الجسد والهويّة والأنوثة، ولا يستقيم أمر الفكر النّسويّ بانتقاء مشكلة بعينها وتعميمها باعتبارها المشكلة الوحيدة لدى جنس النّساء عامّة بدون معالجة وضع المرأة ضمن الحراك العام للمجتمعات البّشريّة، فذلك الحراك هو الذي يحدّد درجة أهمّيّة المشكلة في هذا المجتمع أو ذاك"[1]، فللمرأة دور اجتماعيّ تمارسه، شرط أن تملك هامش حرّيّة يتيح لها أداءه في المجتمع الذي تنتمي إليه من دون تصنيفها، أو إطلاق الحكم عليها بالفشل أو الضّعف أو النّقص، ويحثّ النّصّ المتلقّي على مواجهة الواقع وتحريك المجتمع تجاه قضيّة المرأة عبر التّأثير فيه وتأليب الشّكوك في نفسه تجاه نظرة المجتمع النّمطيّة والمحدودة، والأفكار المسبقة ذات القوالب الجاهزة. وقضيتا العمل أو العلم ليستا ما يؤرّق بال المجتمع التّقليديّ، أو يثير قلق العقليّة الرّجعيّة السّائدة فيه فحسب، بل تُعدّ نظرة انتقاص الذّكر للأنثى فضلاً عن العلاقة المشحونة بين الطّرفين في البيئة الذّكوريّة أزمة وجوديّة في السّرديّة التّاريخيّة وفي كيان المجتمع التّقليديّ، ويتبادل الطّرفان الأدوار في الانتقاص من الآخر والتّهكم به، وقلّما تجد المرأة مكاناً لها بين الذّكور الذين تعتريهم النّزعة السّلطويّة، فيضعف شعورها بأنّ وجودها مركزيّ وليس طارئاً وهامشيّاً.

تقول إحدى النّساء المكنّاة بأمّ البنات لـ "عرفة" متحدّثة عن زوجها المتوفّى: **"لم يكن وسيماً ولا غنيّاً، لكنّه كان رجلاً! قالت وهي ترفع قبضتها إلى الأعلى:**

**– وما الفرق؟ كلّهم رجال في النّهاية!**

**–[...] السّنوات القليلة التي عشتها معه هي الوقت الذي شعرت فيه بأنّني إنسانة كاملة طوال حياتي كلّها، لذلك لم أتزوّج حتّى لا يدركني النّقص.**

**قالت عرفة ضاحكة:**

**– وهل يُنقص الزّواج من أحد؟ أليس هو كمال الدّين؟**

**– إنّ الزّوجين كالنّهر والشّطّ، كلّما زاد أحدهما نقص الآخر!**

**– وأيّهما عوض؟**

**– مرّة يكون نهراً، ومرّة يكون شطّاً!"**[2].

تفترض المحادثة أن يتساوق الحوار في بنائه بين الطّرفين مع جملة من الشّروط المعرفيّة والمقاميّة والقصديّة*، بيد أنّ الحوار يدور بين أنثيين اختلف مقامها وتغايرت تجربتهما الحياتيّة، فالمرأة النّاضجة تستمدّ قولها من مرجعيّتها

[1]– إبراهيم، عبد الله. *السّرد النّسوي الثّقافة الأبويّة الهويّة الأنثويّة والجسد*، المؤسّسة العربيّة للدّراسات، بيروت، 2011، ط1، ص45.

[2]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص74.

لتحكم على الرّجل النّاجح، وهو ما تفتقر إليه شابّة مراهقة وحيدة مرّت بتجارب عنيفة وقاهرة في أثناء رحلة نزوحها، فتنفي المرأة الافتراض المسبق الذي تتخيّله الفتاة الشّابة عن شروط الزّوج المستقبليّ في أن يكون الزّوج وسيماً أو غنيّاً وفق ما تعارفت عليه الفتيات اجتماعيّاً وعددنه شرطاً من شروط الزّواج، فيجري الحوار تداوليّاً في مسار متنافر مقاميّاً، فالطّرف الأوّل الذي تمثّله المرأة يحمل مفهوماً ناضجاً عن الزّواج استمدّته من تجارب غنيّة تهبها الحكمة والثّقة، ومنحت كلامها بعداً فلسفيّاً ووجوديّاً عميقاً، أمّا الطّرف الثّاني فيعكس تصوّراً مسبقاً عن رأي شابّة تفتقر إلى الخبرة الحياتيّة، يحثّها ذلك على تبنّي أفكار المجتمع السّائدة التي تزعم أنّ الرّجال كلّهم متشابهون، ويحمل هذا الرّأي افتراضاً مسبقاً عنهم لا تقدير فيه لهم، ولا قناعة بوجود تمايز بينهم.

ويخرج الحوار السّابق عن مبدأ التّعاون، ويخرقه في مواضع عدّة، فالأسئلة المباشرة لا يُردّ عليها بصورة مباشرة، بل تنأى بعيداً عن طلب الإفهام، وتمنح الكلام طابعاً تداوليّاً ومعنى ضمنيّاً يكشفه السّياق اللغويّ، فالمرأة ترى في الزّوجين نهراً وشطّاً متبادلي الأدوار ومتناوبين فيها، ينفي هذا التّوجه الفكريّ الرّؤية النّمطيّة للجنسين، نمط المرأة الأدنى منزلة، ونمط الرّجل الأعلى مكانة، وتدرجهما في إطار حداثيّ جندريّ يؤكّد الدّور الاجتماعيّ الفعّال والدّيناميكيّ لكلّ منهما، بما يتلاءم مع الواقع المحيط والكفاءات المتوافرة لديهما، ويُضمر الحوار أمرين، الأوّل يكمن في المعنى الحقيقيّ للرّجولة، فيعمل على إقناع المتلقّي بالمفهوم الأصيل لهذه الكلمة، والسّعي إلى دحض المفاهيم الخاطئة التي يمليها المجتمع على النّساء والرّجال، وتأكيد دور الرّجل المتنوّر في إعطاء المرأة حقّها إنسانيّاً، والثّاني يتعلّق بدور المرأة الجديد غير النّمطيّ، والمتحرّر من العادات والثّوابت الموروثة، ويهدف إلى حثّها على فهم دورها وأداء كلّ ما بإمكانها القيام به.

إنّ الحوار يدعو إلى ضرورة فهم الأدوار الجندريّة للجنسين والوعي بحقوق كلّ منهما في المجتمع، والعمل على تقمّص الدّور الملائم، ولذلك تعدّ "المطالبة بحقوق المرأة خطأ إستراتيجيّاً وتكتيكيّاً في آن معاً، المفروض المطالبة بحقوق الرّجل والمرأة معاً، أي بحقوق الإنسان المسحوق الذي تشكّل المرأة فئة كبيرة منه"[1]، فالحريّة الإنسانيّة لكلا الجنسين حرّيّة متكاملة لا تتجزأ، ومنح المرأة دورها الحقيقيّ والمتكامل لا يأتي من وعيها فحسب، بل يلزم الأمر وعياً مشتركاً بين الجنسين، بيد أنّ التّفاوت بين المجتمعات في إدراك دور المرأة والاعتراف به شاسع، ويتوسّع الشّرخ في المجتمع التّقليديّ.

وتُضيف الحروب الدّائرة بصمة أخرى تزيد الأمور سوءاً؛ إذ تعمّق الحروب وتبعاتها مأساة الإنسان عامّة، والمرأة خاصّة، فقد تركت الحرب جرحاً عميقاً لدى "عرفة" تجاوز عتبات فقد العائلة والاستقرار الأسريّ، والقصور المعرفيّ، والشّعور بالنقص والحرمان من الأمان، ومن أبسط الحقوق الإنسانيّة، وذلك عندما تعرّضت إلى الاغتصاب غير مرّة في مسيرة نزوحها وأسرها، فتقول مقهورة أمام أحد الضّباط الشّاهدين على سجنها وتعذيبها في لقاء جمعها معه عقب تبرئتها من تهمة قتل أحد المقاتلين: "**وماذا عن اتّهامي وتعذيبي واغتصابي وتجويعي وإهانتي؟**

---

* يمثّل الشّرط المعرفيّ الخزّان المعرفيّ الذي يستقي منه المتحاورون مضامينهم الحواريّة، ويرتبط الشّرط المقاميّ بمقام التّواصل والظّروف الزّمانيّة والمكانيّة، أمّا الشّرط القصديّ، فهو سابق لدى المرسل، بظاهره ومضمره، في حين أنّه لاحق لدى المتلقّي، ويعتمد ظهوره لديه على مبدأ المثير والاستجابة. ينظر: نظيف، محمد. *الحوار وخصائص التّفاعل التّواصليّ دراسة تطبيقيّة في اللسانيّات التّداوليّة*، أفريقيا الشّرق، المغرب، 2010، 56-57.

[1]- السّمان، غادة. *القبيلة تستجوب القتيلة*، الأعمال غير الكاملة، منشورات غادة السّمان، بيروت، تموز 1997، ط2، ص 170.

**لاذ بالصمت، وتعكّرت صفحة وجهه بألف لون. شعرتُ بأنفاسي تتصاعد وقلبي تزداد خفقاته.**

**–ماذا عن كلّ ما ارتكبه أولئك الأوغاد في حقّي؟ هل ترغب في أن أسامح بشأنه ردّاً على جميلكم بإعلان براءتي؟ [...]**

**صمت لبرهة قبل أن يستطرد:**

**– نحن في منطقة حرب، والحرب تقع فيها أشياء كثيرة!"**[1].

تُعدّ إجابة الرّجل ردّاً غير مباشر أو مرتبط بالسّؤال ارتباطاً منطقيّاً واضحاً، وتخرق الإجابة مبدأ التّعاون بما يناسب مضمر السّؤال، والأسئلة التّداوليّة التي يلقيها المتكلّم لا تنتظر إجابة، بل هي أسئلة استفهاميّة إنكاريّة ترتّبت على ما سمعته الفتاة من كلام يقتضي الاستهانة بألمها، وتجاهل حجم الإهانة التي هشّمت إنسانيّتها، فقد فرّغ الرّجل الجريمة من معناها الوحشيّ، وعدّ حادثة الاعتداء عليها أمراً عرضيّاً وليس بطارئ في بلد يمرّ بمحنة قاسية تعرك البشر.

ويكشف السّياق هول ما تمرّ به النّساء في الحروب من هدر للكرامات وانتهاك للحرمات، وتفضح الخلل الذي يزعزع موازين العدالة بشأن المرأة المغتصبة، ويضيّع حقّها في القصاص من الجاني على الرّغم من أنّ الجزاء هو الرّادع الأعمق أثراً، والأقدر على قطع سبل الجريمة، فمن "أهم وسائل الوقاية من العنف الجنسيّ هي ضمان أن يعرف مرتكبه المحتمل أنّه سيعاقب. إلا أنّ إلقاء القبض على مرتكب تلك الجريمة ومعاقبته ينطويان على تحدٍ أكبر مما تبدو عليه المسألة للوهلة الأولى؛ ذلك لأنّ الأمر يتطلّب وجود قوانين ملائمة تجرّم العنف الجنسيّ، وقطاع أمنيّ يعمل جيّداً (شرطة وسجون)، ونظام قضائيّ يستطيع أن يدير المحاكمة"[2]، ولكنّ قيام هذه الاحتمالات المتوقّعة مجرد تزّف قانوني في سرديّة الحروب، فتُغيَّب فرصة المحاسبة، لذا يُعدّ جواب الرّجل وتسويغه للاعتداء بقوله: "الحرب تقع فيها أشياء" ردّاً على الألم بالألم نفسه، وإجابة عامّة في ملابسات وضع خاصّ، وتمييعاً لهول الحادثة، وهروباً من المطالبة بالقصاص، وممّا لا شكّ فيه أنّ للحرب تبعات جمّة، وانتهاكات لا حصر لها تعود جميعها إلى تدنّي مستوى الأمان، وربما ضعف القدرة على ضبط حاملي السّلاح وإخضاعهم إلى القانون، غير أنّها لا تعفي المسؤول من مسؤوليّته، ولا تجعل الجريمة حدثاً عابراً يستهان به، وبخاصّة في مقام غدت فيه القيادة أسيرة بيد من يدّعي الوصاية والحماية، ذلك أنّه "يجب على السّلطات الحاجرة أن توفّر لضحايا الاعتداء الجنسيّ الرّعاية الطّبيّة والنّفسيّة، وأن تحميهم من التّعرض لمزيد من الإيذاء"[3]، فحماية المرأة من الاعتداء الجسديّ واجب السّلطة لا الأفراد.

تزايد حالات الاغتصاب في البلاد المنكوبة الشّقية بوباء الحروب يغدو عاملاً مقلقاً، ويعدّ خطراً على حياة المرأة نفسيّاً وجسديّاً، وتزيد ردّة فعل المجتمع التّهميشيّة المرأةَ سوءاً، إذ إنّ "النّظرة البطريركيّة إلى المرأة على أنّها ملك الرّجل تعزّز فكرة أنّ الاغتصاب جزء من غنائم الحرب المشروعة، إذ يُنظر إلى الرّابحين بأنّ لهم الحقّ في أن يأخذوا نساء أعدائهم تماماً مثلما يسلبون الممتلكات"[4]، فيعمل النّصّ على تقريع فعل الاغتصاب، وما ينضوي عليه من مشكلات

---

[1]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص221.

[2]– الجامع، ربى خدام. *المرأة والحرب*، ترجمة: ضحوك رقية، تحرير: كارول كوهن، الرحبة للنشر والتوزيع، دمشق، 2017، ط1، ص167.

[3]– ليندسي، شارلوت. *نساء يواجهن الحرب*، دراسة للجنة الدوليّة للصّليب الأحمر حول أثر النزاعات المسلّحة على النّساء مع مساهمات من إيمانويلا، دار الكتب والوثائق القومية، كيارا جيلارد، باربارا ياجي، مونيكا كييف، شعبة السّياسات والتعاون داخل الحركة، 2009، ط3، ص224.

[4]– الجامع، ربى خدام. *المرأة والحرب*، ص 148.

تنعكس آثاراها المدمِّرة على المرأة صحيّاً، وعلى البلاد المتهالكة وغير المؤهّلة للرعاية الصّحّيّة أو التّعامل مع هذا النّوع من الانتهاكات.

**5-2- واقع الحروب، وأيديولوجيا السّلطة الأقوى:**

تُدرج الحروب ضمن أقسى المآسي البشريّة وأكثرها إيلاماً؛ إذ يحتشد فيها مشهد القتل والإملاق والشّقاء والعنف في رقعة جغرافيّة واحدة، حيث يصير المكان جحيماً لا مفرّ منه، وتعود إلى أسباب من أبرزها إقامة دولة جديدة، و"تضع صرعات تشكيل الدّولة حكومة ما أمام معارضة تعتمد على هويّة ما، وتركّز على قضيّة الأرض، وتتمثّل القضيّة الأساسيّة في ضمان أمن جماعة معيّنة، وعادة ما ترتبط هذه الصّراعات بإقليم جغرافيّ داخل الدّولة"[1].

يقول والد "عرفة" في وصف الأحداث: "- **الأسوأ في كلّ ما جرى أنّ طائرات الحكومة لا تفرّق بين المواطنين والأعداء. قصفت ودمّرت من دون حساب.**

**- لا تقل هذا يا رجل، حكومتنا إسلاميّة ولا تقتل نفساً بغير نفس، هذا حديث المعارضين أليس كذلك؟**

**- بل حديث النّاس. وهو ما رأيته بأمّ عيني!**"[2]. ينطوي الحوار على فعل كلاميّ ينقل أحداثاً واقعيّة عن المعارك وهول القتال المنفلت من أخلاقيّات الحرب، موضّحاً ماهيّة العنف الذي يمارسه المقاتل متجاهلاً الفرق بين حامل السّلاح والأعزل من المواطنين المدنيين، ويتأزّم الحوار بين الطّرفين عندما يعتمد أحدهما على حجّة كلاميّة تنفي رأي خصمه مستنداً إلى مسلّمة مثبتة عرفيّاً ودينيّاً يدعي بوساطتها أنّ الحكومة التي تجعل من التّشريعات الدّينيّة سنناً لها لا تفتك بالنّاس عمداً، وينأى الحوار عن مجراه السّلميّ ليأخذ طابع الجدل، والجدل "ليس حجاجاً بالقوّة يحمل المخاطب على القيام بعمل معيّن بالتّهديد، ولا هو حجاج إغرائيّ يذكي حميّة الجمهور ويثير حماسهم، ولا هو ينزع منزع المحاجّة بالتّجهيل يفحم مخاطبه بدعوته إلى أن يدلي بما ينافي الحجّة المقدّمة إليه. وإنّما هو حجاج يحتكم إلى العقل، ويحدّ من سلطة العواطف والأهواء، ويكبح جماح الغضب ويدعو إلى الإقناع بالحجّة مستمدّةً قوّتها من ذاتها لا من ذات منشئها أو من ذات متلقّيها"[3]، فينزع كلّ طرف من أطراف الحوار المتعارض إلى الدّفاع عن اعتقاده الرّاسخ بحجّة تعكس قوّة مقولته، ولا يقتضي ذلك صدقها أو كذبها، بل هي حاجة المتكلّم إلى إثبات صحّة اعتقاده، فيفتّش عمّا يثبت صدقه مدّعياً أنّه يخاطب العقل ويحتكم إلى المنطق، فتحمل حجّة أحد أطراف الحوار مرجعيّات عقائديّة راسخة تعزّز صحّة الكلام، غير أنّ المفارقة الحواريّة تكمن في نقض الفكرة عندما يدلّل الطّرف الآخر من الحوار على أنّ مصدر الخبر مستمد من عامّة الناس، متذرّعاً بأشدّ الحجج رسوخاً ومصداقيّة وهي الواقع المرئيّ والمسموع، مشيراً إلى المعاناة الإنسانيّة الرّابضة بهم في غياب الامتثال إلى القوانين الدّينيّة والحكوميّة.

يعكس الاختلاف بين طرفي الحوار الآراء المتباينة لدى الشّعوب المتصارعة في الحروب، ويفضح الانتهاكات التي تُمارس في حقّهم، ويفشي حقيقة سلوك المقاتلين الذين يمتهنون سفك الدّماء عنوة ضاربين بعرض الحائط كلّ ما تنصّ عليه النّصوص الدّينيّة والتوّجيهات الأخلاقيّة من الرّحمة والتّسامح، فضلاً عن

---

[1]- فالنستين، بيتر. مدخل إلى فهم تسوية الصراعات الحرب والسلام والنظام العالمي، ص225.

[2]- النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص38.

[3]- البهلول، عبد الله. *الحجاج الجدليّ خصائصه الفنّيّة وتشكّلاته الأجناسيّة في نماذج من التّراث اليوناني والعربي*، دار نهى، صفاقس تونس، 2013، ط1، ص297.

تشريعات حقوق الإنسان الدّاعية إلى عدم المساس بالمدنيين منتهكين ما يُعرف بأخلاقيّات الحروب، فيكشف النّصّ السّتار عن المفارقة الحاصلة بين التّعاليم الدّينيّة وتشريعات حقوق الإنسان من جهة، والممارسات التّطبيقيّة على أرض الواقع من جهة أخرى، بل يستحضر ما تتداوله المنظّمات الحقوقيّة والإنسانيّة عن صون كرامة المرء والحفاظ على حياته في الحرب، ويثير الحوار المخاوف من تبعات الممارسات المنفلتة من الأخلاق جملة وتفصيلاً، ويحضّ على إعمال العقل فيما تتداوله الأخبار من شائعات تحجب بها الحقائق، وتغالط الصّادق منها في كنف رقعة جغرافيّة يتناحر أفرادها وفقاً لاختلاف انتماءاتهم وتنوّع مرجعيّتهم.

ويغدو موضوع الانتماء عاملاً أساسيّاً في البلاد التي تستعر فيها نار الحرب الدّاخليّة بين سكّانها، وقد عُد سؤال النّاس عن هويّة الفتاة حملاً ثقيلاً ذا وطأة تثير الهواجس في النّفس، وجاء في الرّواية عقب السّؤال عن المنطقة التي تنتمي إليها: "– **من أيّ بلد أنت؟**

**مرّة تقول كسلا، وتارة من إرتريا، وثالثة من القضارف وأخرى من أيّ بلدة تخطر على بالها، فتنصرف أذهانهم إلى أسئلة أخرى. بيد أنّ السّؤال، رغم تكراره الممّل ظلّ يرعبها، وكأنّها تسمعه للمرّة الأولى**"[1]. يسهم السّياق الاجتماعي في تحديد أبعاد السّؤال وإبراز تأثير الانتماء في المجتمع، فهو يخرج عن معناه المباشر وطلب معرفة الموقع الجغرافيّ إلى مسار أبعد يقوم على البحث عن الأصل والدّين والعرق، وعن كل ما يُضمر خصوصيّة صاحبه، فقد يتعلّق بموقف المنطقة سياسيّاً واجتماعيّاً تجاه أحداث بلد غير مستقر، فيعدّ السّؤال عن الهويّة أمراً شائكاً في مكان تتصارع فيه الفئات، ويغدو شركاً يقع فيه المتكلّم في مقام خاطئ بين يدي خصمه، فإخفاء الانتماء الجغرافيّ عند "عرفة" وراءه الخوف من أن تدفع ثمن ارتباطها القسريّ بهذا المكان الذي صار بؤرة المعارضين، ويصير التّخوّف من كشف الهويّة ثمّ السّعي إلى تزويرها أزمة رائجة في عالم عنصريّ مليء بالصّراعات السّياسيّة والدّينيّة والعرقيّة والقوميّة، فيصبح التّهرب من الأصل كفاحاً مسّوغ الأداء من أجل البقاء، فالفتاة تخشى من تحمّل وزر الآخرين ودفع ثمن خطأ لم تقترفه أو سوء نيّة.

إنّ خوف الفتاة من ردّة الفعل تدفعها إلى التّهرّب من أصلها وتزييف الوقائع، خوفاً من الأذيّة الّتي تحدثها الصّرعات الأهليّة، والحروب الأهليّة "هي نتاج الطّبيعة البشريّة أو التّركيبة المعقّدة للمجتمعات الأفريقيّة"[2]، وقد تكون نتائجها طويلة الأمد، وتخلق فيها نكبات وعنفاً وعنصرية تجاه الهويّة المغايرة.

وتُعرف الهويّة بكونها معطى مرناً ديناميكيّاً خارجاً عن القوالب الجامدة والمفهوم الثّابت، وهي جملة من السّمات المتغيّرة التي تنحتها المتغيّرات المحيطة بنا عبر الزّمن، لكنّ تغييب حقيقة الهويّة الأصليّة وإنكارها يمثلان أزمة وجوديّة وإنسانيّة، ويؤكّدان وقوع فجوة في العلاقات الإنسانيّة السّلميّة، والسّياق الاجتماعيّ يتذبذب في تقبّل الهويّة وإحاطة صاحبها بالاحترام أو استهجانها والنّفور منها وسوء المعاملة مع المنتمين إليها.

وتؤرّق الحروب حياة الأمم، وتدفع من تعركهم على التّفكير وجوديّاً في ماهيّتها وأسباب نشوبها ومعرفة الأطراف المتناحرة فيها وأسباب حربهم، وكيفيّة إخماد سعيرها، وفي ذلك تقول "عرفة" لزوجها "موريس" مستنكرة الحرب، داعية إلى الحوار بوصفه بديلاً أنجع: "– **أيّهما أسهل بربّك؟**

**–الحرب طبعاً!**

**–الحرب؟**

---

[1]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص42.

[2]– الإعسير، إبراهيم أحمد. *الصّراعات البشريّة صراع الذّات والآخر دراسة فلسفيّة أنثروبولوجيّة*، دار الرحمة، القاهرة، 2024، ص75.

**–نعم الحرب، لذلك هي تقوم دائماً. من السّهل أن آخذ ما في يد إنسان آخر عنوة، لكن من الصّعب إقناعه بالتّنازل عنه. التّفاهم يعني الاعتراف والنّديّة، والإنسان بطبعه يحبّ أن يكون نداً للقويّ، ولا يبقى سوى الحرب كمحاولة وحيدة لإثبات القوّة والنّديّة، لذلك يأتي التّفاهم بعدها"**[1].

تتفاعل مسارات الحوار بين الطّرفين المتباينين رأياً، فيطرح الطّرف الأوّل سؤالاً توجيهيّاً يستدعي إجابة بدهيّة كما يظن، ليأتي الجواب التّأكيديّ الذي يضع الطّرف الأوّل موضع الجاهل والغافل، فيخرق بجوابه مبدأ الكم الذي يتطلّب الوضوح وعدم اللبس، غير أنّه يستدرك شارحاً ومفسّراً.

ويدلّ السّياق المقاميّ على أنّ هناك بوناً فكريّاً هائلاً بين الزّوجين، ويُحدث اختلاف مقام المتحاورين خللاً في توازن كفّتي الحوار، ويؤدّي هذا بدوره إلى توضيح مفهوم الحرب وحتميّة قيامها، ويفسح ذلك الفرصة للطّرف الأقوى في هذه المعادلة بإبراز رأيه والانتصار له، ويغيب شرط التّواصل الحواريّ المقاميّ*، فيدعم الطّرف الأوّل الذي تمثّله الزّوجة رأيه بحجّة واهية وعفويّة لا ترتكز على دعامة معرفيّة أو منطقيّة، في حين يملك الطّرف الثّاني – وهو الزّوج – مرجعيّات سياسيّة وخبرات إنسانيّة وتجارب حياتيّة تدعم معتقده حول ماهيّة الحرب، وتمدّه بالأسباب التي يحتجّ بها.

ولا تلغي الحرب الملموسة بأدواتها السّاخنة دور اللقاءات السياسيّة، إنّما تُرجئ ذلك الخيار إلى ما بعد الاقتتال، فيغدو الحوار السياسيّ عملاً قسريّاً يُفرض على طرفي الصّراع ولاسيما الطّرف الأضعف، فيستبعد الرّأي القائل بأزليّة الحروب وحتميّتها التّاريخيّة المشاعرَ الدّاعية إلى السّلام الدّائم، ويبدو أنّه "لا لزوم أن نكون عاطفيّين، وقد يكون الواحد منا على وعي بضرورة الحرب، ضرورتها البيولوجيّة والسيكولوجيّة في اقتصاديّات الحياة البشريّة [...] والواقع أنّنا أقنعنا أنفسنا أنّ الحرب لا يمكن أن تتوقّف طالما أنّ الشّعوب تعيش في ظروف متباينة أشدّ التّباين، وطالما أنّ حياة الأفراد لها وزنها المختلف في كلّ أمّة"[2]، فإذا تعدّدت أسباب اندلاع الحروب فإنّ التّباين الهائل بين أوضاع الشّعوب هو أحد أبرز أسباب نشوبها، فضلاً عن وجود الأطماع الاقتصاديّة والطّموحات السّياسيّة والرّغبات الإستراتيجيّة التي لا تُؤخذ بالحوار بصورة عامّة، بل بالحرب بوصفها وسيلة ناجعة وقادرة على إدراك الغايات صعبة المنال، يتطلّب ذلك تفعيل أدوات العنف واقتناص الفرص، والحرب وسيلة لبلوغ غايات دوليّة، وهي تمثّل "أقصى صور التّنافس البشريّ، فهي صراع دمويّ بين إرادتين تبغي كلّ منهما التّغلب على الأخرى، وتحطيم مقوماتها وحملها على التّسليم لها بما تريد"[3]؛ فالقائمون عليها يتّخذون من السّلاح أداة توظّف بغية تحقيق الأهداف، وفرض القواعد المخطّط لها، وقد يصل الطّموح الحربيّ إلى رسم خارطة جديدة للدّولة، أو صياغة قوانين تضمن سيطرة الأقوى وتوسّع نفوذه على المدى البعيد.

وتعتمد الحروب السّاخنة في قيامها على السّلاح مولّداً معه العنف، يقول أحد المقاتلين: "– **هذه الآلة هي التي تتحكّم في كلّ صغيرة وكبيرة في هذا العالم الزّائف، فالآمن آمن بسببها والخائف خائف بسببها**

---

[1]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص143.

* يعدّ الشّرط المقاميّ واحداً من شروط التّواصل الحواريّ. ينظر: نظيف، محمّد. *الحوار وخصائص التّفاعل التّواصلي دراسة تطبيقيّة في اللسّانيّات التداوليّة*، ص67.

[2]– فرويد، سيجموند. *الحبّ والحرب والحضارة والموت*، ترجمة ودراسة: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، القاهرة، 1992، ط1، ص 11–12.

[3]– الأنسي، عبد السّلام حمود غالب. *مفهوم الحرب في الفقه والقانون*، مجلة الفقه والقانون، جامعة عليكرة الإسلاميّة الهند، العدد9، يوليو 2013، ص 42.

**أيضاً. تقوم دول وتنهار أخرى ويصعد أشخاص ويسقط آخرون لكنّ النّاس لا يحبّون تذكّر ذلك. طلقة واحدة من هذه الآلة في الزّمان والمكان الصّحيحين يمكنها أن تغيّر مصير أمّة بأكملها"[1].**

جاء الفعل الإنجازيّ في قوله "هي التي تتحّكم في كلّ صغيرة وكبيرة" بأسلوب خبريّ على صعيد التّصريحيّات، فخرج الكلام عن مجرد نقل المعلومة والإخبار عنها، وغدا فعلاً إنجازيّاً متحقّقاً في الواقع، فأخذ يؤكّد سلطة السّلاح في المعركة الوجوديّة، ويبرز وجه العنف الممنهج وقوّته في فرض سلطة الأقوى على الأضعف، فيغدو السّلاح وسيلة تعويضيّة عن الحوار، بل ربما هو سبيل إلى فرض حوار مؤدلج يتوافق مع طموحات الطّرف الأقوى في الصّراع، فيغيّر ذلك جغرافيّة المنطقة ومصير الأمّة، ويعيد تأطير الحدود بين الخصوم، ويعدّل قانون القوى بينهم، ويغدو السلاح سيفاً ذا حدّين، فهو يحفظ الأمن من جهة ويشعل فتيل الحرب من جهة أخرى، هذه الازدواجيّة التي يحملها السّلاح ما بين الحفاظ على حياة الإنسان أو إنهائها هي وراء كلّ ما تخلص إليه الحروب من نتائج محسومة بقوّة النّار.

تتنقل الفتاة الأسيرة في ظروف الحرب وملابسات الأسر بين معسكرات عدّة، وفي كلّ مرّة يزداد ألمها ويتعمّق خذلانها، فتقول "عرفة" في موضع أسرها الجديد، حيث تسيطر الفئات المسلّحة المعارضة: **"أتأمّل شاغليه الجدد وأقارن في ذهني بينهم وبين سلفهم. لم أجد فروقاً كبيرة بين الفريقين سوى اختلاف الأعلام والرّايات التي ترفرف فوق الثّكنات المتداعيّة. هو الاستعداد الأبديّ نفسه لإطاعة الأمور التّافهة في أي وقت. هي الطرائق العنيفة نفسها في مواجهة الأمور البسيطة التي لا تتطلّب عنفاً"**[2].

تعقد الفتاة مقارنة بين طرفين يتصارعان في المنطقة، فتصدر فعلاً كلاميّاً إنجازيّاً على سبيل الحكميّات، وتدلّ على أوجه الاختلاف الشّكليّة القائمة بينهما، نافيةً وجود فوارق جوهريّة، فيضمر الكلام معاني ضمنيّة عن واقع الحال، ويسهم السّياق اللغويّ للنّصّ في توضيح تلك المعاني المتعلّقة بممارسات العنف والقتل والتّهجير الممنهج تحت شعار واحد هو العمل من أجل قضيّة سامية ومصيريّة، لكنّه في واقع الأمر صراع سلطويّ مزعوم يدّعي حقّ تقرير مصير العامّة والاستيلاء على الأرض تحت ذريعة امتلاك الحقيقة واعتناق القضيّة، يفيد ذلك بأنّ المفاهيم الأساسيّة لبناء هذه الدّولة قد اختلطت فيما بينها، وشابها أثر من التّشوّه الأخلاقيّ والإنسانيّ، فوقعت كلّ جهة منغمسة في الحرب في فخّ الانتهاكات الإنسانيّة الشّرسة.

إنّ الأزمة الوجوديّة بين الخصوم تنضوي على ادّعاء كلّ منهم أنّ له الحقّ في فرض قواعده وبسط نفوذه، فيعزّز ذلك التّطرّف في الرّأي، ويرسّخ أركان الاقتتال، فيتعمّق شعور الانكسار والقّهر لدى ضحايا الحرب، و"عرفة" وفق مقامها لا تدرك أبعاد الصّراع، لكنّها تحسّ بانعكاسها في نفسها، وما مرّت به الفتاة من حرب ونزوح وأسر واغتصاب جعلها تعرّف نفسها بأنّها وليدة هذه الحرب، إذ تقول: **"أنا ابنة الحرب وضحيّتها ومعناها، إن كان لها معنى"**[3].

يأخذ الفعل الكلاميّ هيئة البوحيّات، ويعكس مأساة الإنسان وبؤسه في الحرب، فيختزل الفعل الكلاميّ معاني ضمنيّة يكشف عنها السّياق اللغويّ، فما تتداوله الفتاة من بوحيّات يعبّر عن فئة شعبيّة واسعة تُخلق تحت وطأة المعارك، وتعيش حقبة زمنيّة طويلة فيها، وتغدو ضحيّة إنسانيّة تدفع أثماناً باهظة، فإقرار "عرفة" هذا يؤيّد أنّ لكلّ أمر جوهراً ومعنى، ولهذه الحرب غاية يجب أن تتحقّق.

---

[1]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص171.

[2]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص262.

[3]– السّابق، ص350.

والحرب "ليست تجربة فرديّة، والمعاناة التي تنتج عنها تُدرك في سياق المجتمع"[1]، فللحرب انعكاسات شتّى تترك آثارها النّفسيّة والجسديّة على المحيط البشريّ المنكوب. وتكمن المفارقة في أنّ الإنسان في المعركة هو الضّحيّة والهدف في آن، فما يدور في سياق الحروب يهدف إلى بناء الدولة التي تحتضن سكّانها، وتوفّر الأمان لهم، وتحفظ الكرامة، لكنّ حجم الخسائر البشريّة، وهول المآسي الإنسانيّة، وكلّ ما يحيط بالمرء من ظروف قاهرة أو تعذيب ممنهج يُفقد الحرب قيمتها النّفعيّة، فكأنّ الحرب غدت قاعدة ثابتة أزليّة وإستراتيجيّة راسخة للتّحوّلات الجذريّة في البنى السّياسيّة والهيكليّات الدّوليّة، ولا تجدي المفاوضات فيها أو المساومات وحدها نفعاً، فتترسّخ خطّة السّيطرة القسريّة وإملاء القواعد الجديدة بيد ذوي النّفوذ والقوّة.

**5-3- الأفكار المسبقة والمسلّمات، بحث في مضمر القول**

تُضمر الملفوظات معاني لا يكشف عنها النّصّ بصورة مباشرة بل تستدعي البحث في جوهر التّلفظ، والنّظرَ في أبعاد العمليّة الحواريّة المسكونة بالمدلولات والمقاصد التّداوليّة المتنوّعة، وتظهر أبعاد الحوار ومضمراته في مواضع عدّة؛ إذ يقول الشّيخ الذي اختطف "عرفة" أمام القاضي في قاعة المحكمة:

"- **في عصمتي واحدة فقط!**

- **وماذا عن الأخريات؟**

- **إنّهنّ ملك يمين!**

- **ماذا تعني بملك يمين؟**

- **يقول الله تعالى (وَالَّذينَ هُمْ لِفُرُوْجِهِمْ حَافِظُوْنَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلومِينَ) إنّهنّ ملك يميني يا سيادة القاضي**"[2]. يعكس الحوار قضيّة شائكة تتوافق عليها شريحة اجتماعيّة يحكمها أمران؛ السّلطة الدّينيّة والسّلطة الذّكوريّة، فيحتدم الجدل بين طرفي الحوار، ويستدلّ المتّهم على صحّة موقفه من المصادر النّقليّة المسلّم بها، ويحتجّ بشاهد حجاجيّ قرآنيّ دعماً لسلوكه، ودحضاً لادّعاء الخصم الذي ينكر على المتهم فعله، ثمّ يستند المتّهم إلى حجّة عاطفيّة كلاميّة تفحم خصمه بعد تأكيد القاضي رفض الفتيات ادّعاء الشّيخ، وإنكارهّن الموافقة على الارتباط به، وذلك عندما يزعم أنّ الله شاهد على زواجه في قوله: "-**الله خير الشّاهدين**"[3]، فيرتكز المتّهم في خطابه على الحجاج النّقليّ العاطفيّ وليس المنطقي، فشهادة الله على الأحداث أمر واقع في الغيبيّات يتعذّر نفيه، كما يصعب التّشكيك فيه وفق السّياق الاجتماعيّ والعاطفيّ في الوقت ذاته، فيأخذ الحوار المتعلّق بقضيّة دينيّة طابعاً جدليّاً يحتجّ فيه الطّرف الأوّل بما هو متداول نقلاً، أمّا الطّرف الثّاني فيستند إلى العقل والواقع القائم، فيلجأ القاضي إلى الاحتجاج بكلام الفتيات المخطوفات، لكنّه يفتقر إلى دليل ينكر من خلاله حجّة خصمه الكلاميّة المتعلّقة بشهادة إلهيّة خفيّة، ولكلّ جهة كفاية معرفيّة تمدّه بآليّات إقناع معيّنة، و"الكفاية الأيديولوجيّة في السّلوك الحواريّ تظهر في التّبادل الحجاجيّ، حيث يمارس

[1]- سمرفيلد، ديريك. *الحرب والصّحّة النّفسيّة*، ترجمة: فتحية رفقي، مراجعة: خالد سليمان، مركز أركان للدراسات والأبحاث والنشر، 2022، ص5.

[2]- النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص185.

[3]- السّابق، ص186.

كلّ طرف قدراته التّفسيريّة للقضايا بإبراز المناحي التي تعطي قوّة الموقف"[1]، فيدافع كلّ منهما عن اعتقاده، ويتمسّك به باحثاً عن الحجج الأمتن والأقدر على الإقناع.

يتشبّث المدّعى عليه بما يدعم موقفه مستنداً إلى التّشريع الدّينيّ والنّصّ القرآنيّ، غير أنّ "الآيات القليلة النّاظمة لتفاصيل ملك اليمين الذي كان معمولاً به في عصور سابقة على الإسلام، ترافقت مع سيل من المفاهيم والقيم المفتاحيّة التي أعطاها التّنزيل في جميع مراحله طابعاً شموليّاً، ورفعها إلى مستوى الكلّيّات، وهي مفاهيم وقيم تتنافى تماماً مع كلّ أشكال العبوديّة، وتتناقض جذريّاً مع كلّ مستويات وأنواع التّفرقة، ما يعني أنّ الله عزّ وجلّ أراد للمسلمين رجالاً ونساء على حدّ سواء أن يدركوا أنّ العبوديّة والرّق وبالتالي ملك اليمين ما هو سوى نظام عابر في حياتهم عليهم تجاوزه في الوقت المناسب بما يواكب ويتلاءم مع مستوى تطوّر الحياة الإنسانيّة"[2]، فيحلّ الخلاف محل التّوافق، ويعزّز النّصّ بتفسيره وتأويله الحرفيّ أزمة شائكة تتناقض مع حرّيّة الإنسان، وتخالف ما دعا إليه التّشريع من نقض العبوديّة وتحرير الرّقاب، فملك اليمين يلزم المرأة في الزواج إلزاماً قسريّاً، ويحرمها من حقّ الموافقة الحرّة واختيار الشّريك.

تُضمر اللغة تداوليّاً مفهوماً اجتماعيّاً يزعم بعضهم زواله وهو العبودية، فمصادرة رأي الآخر أو ممارسة الضّغط عليه في مسائل مصيريّة بمنزلة استعباده واسترقاقه، و"إلغاء الرّقّ ليس كنظام اجتماعيّ فحسب وإنّما أيضاً كأسلوب تفكير، كسلوك وطريقة حياة يشكّل أهمّ خطوات تمكين المسلمين من بناء مجتمع جديد يلتزم فعليّاً بأساسيّات القرآن الكريم التي جعلت من المساواة والعدل والقسط والتّراحم والتّعاضد ليس بين المسلمين رجالاً ونساء فحسب وإنّما بين النّاس جميعاً قيماً رديفة لأركان التّوحيد وشروط الميثاق الإلهيّ"[3]، فإنصاف النّصّ الدّينيّ واجب أخلاقيّ وضرورة وجوديّة، وهو قضيّة اجتماعيّة وحاجة إنسانيّة، ونوع من التّديّن العقلانيّ والرّوحانيّ معاً.

تقف الضّحيّة هذه المرّة موقف المتّهمة في قاعة المحكمة بعد أن وُجّهت إليها تهمة الرّدّة عن دينها، لكنّ المفارقة تقع في ردّ "عرفة" على ادّعاء القاضي: "**أنا لست مرتدة، بل أنا على دين زوجي**"[4]، فيمثّل الكلام فعلاً إنجازيّاً تأكيديّاً يُقرّ فيه المتكلّم بحقيقة انتمائه إلى عقيدة يعتنقها الزّوج، وتُعدّ الأقوال أفعالاً إنجازيّة وفق سياق الموقف الذي يجمع طرفين ضمن إطار قضائيّ واضح ورسميّ، وفي هذا المقام تسعى المتّهمة إلى تبرئة نفسها من جريمة الرّدّة مستغلة مرجعيّات القاضي الدّينيّة التي تُلزم المرأة بدين زوجها، فتجعل الارتباط بمرجعه الدّينيّ حجّة كلاميّة دفاعيّة تفحم بها الخصم.

ويتميّز الحوار بالمكاشفة الكلاميّة والمصارحة الشّخصيّة، ويفرض مقام المتكلّمين وشروط المحيط القضائيّ تلك المباشرة الحواريّة، لكنّها تبقى مكاشفة إشكاليّة ذات معان ضمنيّة تداوليّة، فهناك انتماء قسريّ يُفرض على الإنسان، مثل اسمه وجنسه وجنسيّته، فيولد النّاس محمّلين بقوالب جاهزة يتعذّر عليهم الفكاك منها أو تبديلها، ويتطّلب أيّ تغيير موافقة إجرائيّة وقانونيّة، ضبطاً للحرّيّة الشّخصيّة والأهواء الفرديّة.

يدور حوار بين القاضي و"عرفة": "**سيدي القاضي، إنّني أرفض الادّعاءات كلّها. أنا امرأة مسيحيّة وتزوجت رجلاً مسيحيّاً أمام القسّيس في الكنيسة.**

**–اسمك يدلّ على أنّك مسلمة يا حياة، أليس كذلك؟**

---

[1]– نظيف، محمد. *الحوار وخصائص التّفاعل التّواصليّ دراسة تطبيقيّة في اللسانيّات التّداوليّة*، ص37.

[2]– مهنا، فريال. *إسلام أم ملك يمين*، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2006، ط1، ص214.

[3]– السّابق، ص219.

[4]– النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص297.

**-لم أختر اسمي سيدي**

**-مسيحيّة بالميلاد أم بالاختيار؟**

**-بالاختيار سيدي**

**-متى اعتنقت المسيحيّة؟**

**-قبل عام تقريباً!**

**-وما هو الدّين الذي كنت تعتنقينه قبل ذلك؟**

**-لا شيء!"**[1].

إنّ رفض الادّعاءات الموجّهة إلى المتّهمة فعل كلاميّ إنجازيّ على سبيل التّصريحيّات، وهو في سياقه المقاميّ يتحوّل إلى عمل منجز يدلّ على رفض الانتماء إلى دين مسبق، ويغدو الإقرار بالانتماء إلى دين آخر فعلاً كلاميّاً تصريحيّاً يعكس خلفيّة معتقد دينيّ والالتزام به شرعاً وقانوناً.

أمّا الحوار المقتضب والموجز من حيث الكمّ فيعكس عمق الصّراع الوجوديّ، ويعبّر عن الصّراع بين الهويّة الدّينيّة والقانون، ويعزّز سؤالُ القاضي عن دينها السّابق المزعوم الافتراض المسبق عن فكرة اعتناق الدّين منذ النشأة والميلاد، ولصوقها المتين بالإنسان، فيفترض الحوار أنّ الإنسان مسيّر وغير مخيّر في معتقده، وأنّه مقيّد بقوالب محيطه الجاهزة التي تجمعه بهم روابط جسديّة.

يغدو السّؤال عن الاسم والدّين افتراضاً مسبقاً يقتضي إثبات الانتماء الدّينيّ للفتاة بذريعة المنشأ، لكنّ الحوار ينفي الانتماء القسريّ، ويضمر تداوليّاً الرّغبة في الاختيار، هذه الرّغبة التي تعوقها أحكام السّلطة التّشريعيّة، وتردّها خائبة استناداً إلى القانون التّشريعيّ، وتحجب حقّها في القرار، فيقع الاختلاف في الفكر بين الحكمين المدنيّ والدّينيّ، ويغيب في النّصّ الحكم المدنيّ بصورة جليّة، وينبغي "التّمييز بدقّة ووضوح بين مهام الحكم المدنيّ والدّين، وتأسيس الحدود الفاصلة والعادلة بينهما. وإذا لم نفعل هذا فلن تكون هناك نهاية للخلافات التي ستنشأ على الدّوام بين من يملكون الاهتمام بصالح نفوس البشر من جهة، ومن يهتمّون بصالح الدّولة من جهة أخرى"[2]، وهنا الاختلاف في جواز اختيار المعتقد مدنيّاً من منظور تقدير حرّيّة الإرادة أو في منع هذه الحرّيّة تحت حكم التّشريع وسننه الذي يقتضي الالتزام بالأصول النّقليّة المانعة وعدم المساس بها أو محاولة تغييرها.

ويتداول الطّرفان الحوار الآتي: "**-معنى هذا أنّني لا بدّ أن أسلم بالقوّة، وإلا بطشت بي السّلطة؟!**

**-معناه إعادتك إلى الحقّ بقوّة الشّرع وحجّته وبرهانه، وتطبيق الشّرع بيد السّلطان، والسّلطان راعٍ ومسؤول.**

**-وإذا لم أبارح موقفي؟**

**-تتحمّلين عاقبة اختيارك!**

**-أمام الله أم القضاء؟**

**-كليهما"**[3].

---

[1]- النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص327-328.

[2]- لوك، جون. *رسالة في التّسامح*، ترجمة: منى أبو سنة، تقديم ومراجعة: مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، 1997، ط1، ص23.

[3]- النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، ص344.

يعمّ الجدل هذه المرة مجرى الحوار، ويمنحه طابعاً شائكاً، فالمتّهم بموقعه الأضعف وبصفته خائناً يتحدّى الطّرف الأقوى الذي يستند إلى السّلطة الدّينيّة المشرعنة، ويضمر السّؤال: "إذا لم أبارح موقفي؟" رفضاً لعرض القاضي، وانتهاكاً صارخاً للحكم الدّيني، وتحدّياً جادّاً للتّشريعات المعتمدة، أمّا الجواب "تتحملين عاقبة اختيارك" فيضمر إقراراً بالعقوبة، ووعيداً صارماً.

ويعمل طرف ما جاهداً ليفصل بين ما هو روحيّ وآخر دنيويّ، فالمتّهمة تضمر في كلامها شكّاً بالأحكام التّشريعيّة التي تنتهك خصوصيّة اختيارها، وحرّيّة إرادتها المطلقة، والقاضي يثبت أنّ مادّته المعمول بها لا تنفصل عن إرادة الله تعالى وأحكامه التّشريعيّة، ويجدهما صنوان، فيدلّل على المسؤوليّة الواجبة عليه وفق السّياق الاجتماعيّ، وما تحمله من لبنة سلطويّة متينة لاتّخاذ القرارات المصيريّة وتنفيذها بكامل الثّقة، وهنا موطن المفارقة بين كلا الأمرين، حرّيّة المعتقد أو قسريّته.

إنّ الوعيد بالعقاب يخفي وراءه جزاء وخيماً يصل حدّ القتل عقاباً على الارتداد عن الدّين، والجدل القائم تتأرجح فيه إرادة القاضي المكلّف بتنفيذ الحكم الشّرعيّ، ورغبة الفتاة بالحياة وحرّيّة الرّأي والاختيار.

ولا يخفى أنّه لم يرد نصّ قرآنيّ يدعو صراحة أو لفظاً إلى قتل المرتدّ، إنّما اكتفى بالوعيد، وقابل ذلك عشرات من النّصوص الدّاعية إلى حرّيّة المعتقد الدّينيّ والنّافية لكلّ صنوف الإكراه[1]، لكنّ المذاهب المتعدّدة اجتهدت في أحكامها وتناقضت مع مفهوم الحرّيّة الإنسانيّة والمسؤوليّة المترتّبة عليها.

وقد استطاعت الرّواية بلغتها التّداوليّة أن توضّح الفكرة في موضع وتلمّح في مواضع عدّة، وقد عمل البحث على استقراء المعاني الضّمنيّة والمقاصد التّداوليّة، وخلص إلى نتائج عدّة أُدرجت في الخاتمة.

## الخاتمة:

كشفت الحوارات عن المضمرات التّداوليّة التي لا يفصح عنها الكلام المباشر، فأشارت إلى الدّور الاجتماعيّ لكلا الجنسين، وعزّزت مكانة الرجل والمرأة بوصفهما جنسين متكاملين، ولكلّ منهما دور وجوديّ لا يلغي بحضوره الآخر، ولا ينتقص من الإمكانيّات العمليّة والفكريّة لديه.

عُدّ الفعل الكلاميّ عملاً إنجازيّاً يحثّ المتلقي على القيام بأمر ما في سياق معيّن، فقد جاء في صيغة التّوكيديّات والتّقرير لتعزيز قيمة المرأة وإبراز دورها في مجالي العلم والعمل، بوصفهما ضرورة اجتماعيّة وإنسانيّة حثيثة في كلّ ملابسات البلد ونكباته، وتضمّن ذلك توجيه التّفكير الاجتماعيّ إلى تقبّل عمل المرأة ودعمها في غياب المؤسّسات الاجتماعيّة المسؤولة.

دلّ الفعل الكلاميّ التّصريحيّ على أزليّة الحرب وتجدّدها، وما تعزّزه من مظاهر العنف والفقر، وربط حتميّة نشوبها وأسبابها بالضّرورة الوجوديّة، وبالتّفاوت الاقتصاديّ بين الدّول، واختلاف الهويّة والانتماء بين الشّعوب، ومحاولة كلّ طرف إثبات مكانته، وتوسيع نفوذه، وبسط سيطرته حفاظاً على وجوده وترسيخاً لدولته.

شكّكت الحكميّات الكلاميّة بادّعاءات الأطراف المتنازعة، ودحضت الأهداف الظّاهريّة التي يدّعونها، وأثبتت وجود أهداف سياسيّة وأطماع سلطويّة ومنافع شخصيّة لدى الخصوم والأعداء، وفضحت كذب الخطابات الوهميّة وفرّغتها من مضمونها.

---

[1]– ينظر: إبراهيم، ماجد عدنان. *حرّيّة الاعتقاد في الإسلام ومعترضاتها القتال الذّمة والجزية وقتل المرتدّ*، دراسات عربيّة، رقم الدّراسة A092 385، فيينا، 2014، ص859.

فضحت الحوارات ممارسات الاغتصاب الممنهجة في الحروب، وغياب الرّقابة أو المحاسبة، ودعا الرّوائيّ في النّصّ إلى توعية المجتمع تجاه خطر هذا النّوع من الانتهاكات، وضرورة وجود منظّمات فعّالة تحدّ منها، وتساند المرأة المغتصبة، وتدافع عنها وعن وجودها.

أضمرت اللغة التّداوليّة التّهديد الوجوديّ الكائن خلف الهويّة، والحاجة إلى حجبها أو تزويرها في سياق اجتماعيّ معيّن، وافتقار المجتمع في وطأة ظروف سياسيّة أو أفكار متطرّفة دينيّة إلى مفهوم تعدّد الهويّة، وتعزيز الشّعور بالخوف والدّونيّة.

استند الحجاج اللغويّ إلى المقدّسات، وارتكز عليها بوصفها دليلاً دامغاً وحجاجاً متيناً غير قابل للدّحض، واعتمد فيه المتكلّم على المسلّمات التي غدت في حضورها عائقاً أمام الإقناع المنطقيّ، فاعتمد الحجاج على النّقل، مقصياً الحجّة العقليّة وعطّل دورها.

دعا النّصّ إلى توضيح بعض المفاهيم الإسلاميّة الإشكاليّة التي تتنافى مع الحريّة الإنسانيّة مثل ملك اليمين بما يتلاءم مع القيم الإنسانيّة ومفهوم الحرّيّة والحياة المعاصرة، وبما لا يتعارض مع النّصّ الدّينيّ.

أبرز النّصّ مشكلة الصّراع بين الحكم الدّينيّ والحاجة إلى القانون المدنيّ، وأشار إلى الانتماء الدّينيّ بين الاختيار والقسر، فكشفت مضمرات الحوارات عن رغبة المتكلّم في الانتماء الانتقائيّ المبنيّ على قناعة عقليّة أو حاجة إنسانيّة شخصيّة، غير أنّه لا يلقى قبولاً في مقامات اجتماعيّة تقليديّة يأخذ فيها المجتمع دور الرّقيب والوصيّ، فتتصارع إرادتان، إحداهما عقليّة حرّة ترجّح كفّة العقل، وتفتّش عن سبل تسمح بحقّ تقرير المصير، والأخرى نقليّة مقيّدة بقوالب نمطيّة جاهزة تحكم بالمسلّمات المطلقة.

## 7- المصادر والمراجع:


1. إبراهيم، عبد الله. *السّرد النّسويّ الثّقافة الأبويّة الهويّة الأنثويّة والجسد*، المؤسّسة العربيّة للدّراسات، بيروت، 2011، ط1.
2. إبراهيم، ماجد عدنان. *حرّيّة الاعتقاد في الإسلام ومعترضاتها القتال الذّمة والجزية وقتل المرتد*، دراسات عربيّة، رقم الدّراسة 385 A092، فيينا، 2014.
3. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري. *لسان العرب*، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ج3، 1981، ط1.
4. الإعسير، إبراهيم أحمد. *الصّراعات البشريّة صراع الذّات والآخر دراسة فلسفيّة أنثروبولوجيّة*، دار الرحمة، القاهرة، 2024.
5. بريور، ماري نوال غاري. *المصطلحات المفاتيح في اللسانيّات*، ترجمة: عبد القادر الشيباني، سيدي بلعباس، الجزائر، 2007، ط1.
6. بلانشيه، فيليب. *التّداوليّة من أوستين إلى غوفمان*، تر: صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، اللاذقيّة، 2007، ط1.
7. البهلول، عبد الله. *الحجاج الجدليّ خصائصه الفنيّة وتشكّلاته الأجناسيّة في نماذج من التّراث اليونانيّ والعربيّ*، دار نهى، صفاقس تونس، 2013، ط1.
8. بوقرة، نعمان. *المصطلحات الأساسيّة في لسانيّات النّصّ وتحليل الخطاب دراسة معجميّة*، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، 2009.

9. الجامع، ربى خدام. *المرأة والحرب*، ترجمة: ضحوك رقية، تحرير: كارول كوهن، الرّحبة للنّشر والتّوزيع، دمشق، 2017، ط1.

10. حجازي، سمير. معجم *مصطلحات الأنثروبولوجيا والفلسفة وعلوم الإنسان والمذاهب النّقديّة والأدبيّة*، مكتبة شمس المعرفة، دار الطّلائع.

11. ختام، جواد. *التّداوليّة أصولها واتّجاهاتها*، دار كنوز المعرفة، الشّارقة، 2016، ط1.

12. الخليفة، هشام عبد الله. *نظريّة الفعل الكلامي SPEECH ACT THEORY بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغويّة في التّراث العربيّ والإسلاميّ*، الشّركة المصريّة العالميّة، مكتبة لبنان ناشرون، 2007، ط1.

13. ريبول، آن؛ موشلار، جاك. *التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل*، ترجمة: سيف الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، مراجعة: لطيف زيتوني، المنظّمة العربيّة للتّرجمة، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، لبنان، تموز 2003، ط1.

14. السّمان، غادة. *القبيلة تستجوب القتيلة*، الأعمال غير الكاملة، منشورات غادة السّمان، بيروت، تمّوز 1997، ط2.

15. سمرفيلد، ديريك. *الحرب والصّحّة النّفسيّة*، ترجمة: فتحية رفقي، مراجعة: خالد سليمان، مركز أركان للدّراسات والأبحاث والنّشر، مصر، 2022.

16. شرابي، هشام. *النّظام الأبويّ وإشكاليّة تخلّف المجتمع العربيّ*، نقله إلى العربيّة محمد شريتح، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، ت1، 1993، ط2.

17. صليبا، جميل. *المعجم الفلسفي بالألفاظ العربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة واللاتينيّة*، ج1، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

18. علوش، سعيد. معجم *المصطلحات الأدبيّة المعاصرة*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سوشبريس، الدّار البيضاء، 1985، ط1.

19. فالنستين، بيتر. *مدخل إلى فهم تسوية الصّراعات الحرب والسّلام والنّظام العالمي*، ترجمة سعد فيصل السّعد، ومحمد محمود دبور، المركز العالميّ للدّراسات السياسيّة، عمّان، الأردن، 2006، ط1.

20. فرويد، سيجموند. *الحبّ والحرب والحضارة والموت*، ترجمة ودراسة: عبد المنعم الحفني، دار الرّشاد، القاهرة، 1992، ط1.

21. لوك، جون. *رسالة في التّسامح*، ترجمة: منى أبو سنة، تقديم ومراجعة: مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للتّرجمة، مصر، 1997، ط1.

22. ليندسي، شارلوت. *نساء يواجهن الحرب، دراسة للجنة الدّوليّة للصّليب الأحمر حول أثر النّزاعات المسلّحة على النّساء مع مساهمات من إيمانويلا*، دار الكتب والوثائق القوميّة، كيارا جيلارد، باربارا ياجي، مونيكا كييف، شعبة السّياسات والتّعاون داخل الحركة، 2009، ط3.

23. مانغونو، دومينيك. *المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب*، ترجمة: محمد يحياتن، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2008، ط1.

24. مل، جون سيتورات. *استعباد النّساء*، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998، ط1.

25. مهنا، فريال. *إسلام أم ملك يمين*، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، 2006، ط1.

26. النّاظر، حامد. *عينان خضراوان*، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، لبنان – بيروت، 2020، ط1.

27. نظيف محمد. *الحوار وخصائص التّفاعل التّواصلي دراسة تطبيقيّة في اللسانيّات التّداوليّة*، أفريقيا الشرق، المغرب، 2010.

28. هوانغ، يان، *معجم أوكسفورد للتّداوليّة* (*THE OXFORD DICTIONARY OF PRAGMATICS*)، ترجمة: هشام إبراهيم عبد الله الخليفة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، حزيران 2020، ط1.

29. يول، جورج. *التّداوليّة (PRAGMATICS)*، ترجمة قصي العتابي، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، دار الأمان، الرباط، 2010، ط1.

**الدّوريات:**

1. الأنسي، عبد السّلام حمود غالب. *مفهوم الحرب في الفقه والقانون*، مجلة الفقه والقانون، جامعة عليكرة الإسلاميّة الهند، العدد9، يوليو 2013، 22-45.

2. صونيا، عاشوري. *سيكولوجيّة العمل لدى المرأة*، مجلّة دراسات في علوم الإنسان والمجتمع، جامعة جيجل، الجزائر، رقم العدد التسلسلي 3، مجلد2، عدد2، جوان 2019، 62-70.

3. الملا، أروي محمد أحمد. الأفعال *الكلاميّة في الخطاب الرّوائيّ رواية زرارِيب العبيد أنموذجاً*، كلية الدراسات الإسلاميّة والعربيّة للبنات بدمنهور، ع6، ج3، 2021، 952-996.